مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

آراء ابن مسكويه في الأخلاق والاجتماع والتربية

من خلال تهذيب الأخلاق

الدكتور: محمد بن عمران

جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

مدخل:

لقد حاول فلاسفة العالم البحث عما يخرج الإنسان من المرتبة الدنيئة الحيوانية الوضيعة، إلى المرتبة السامية الرفيعة التي اختصه الله تعالى بها، لكي يرتفع من مصاف الحيوان، إلى مرتبة أعلى خُلق من أجلها، وهي خلافة الله في الأرض، لينشر فيها العدل والمساواة والتعاون والخلق الفاضل.

وقد عالج ابن مسكويه[1] هذه المسألة التي تعتبر من أهم محاور بحوث علم

(1) ابن مسكويه هو: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه. عالم، مؤرخ، وفيلسوف. اشتغل بعدة فروع من المعرفة كالكيمياء، والفلسفة، والمنطق، والأدب، والتاريخ. عاش في أصفهان، وتوفي بها عام 1030 م.

ونقول «ابن مسكويه» لأن فريقاً من المؤرخين والكتاب العرب قد جعلوه كذلك، منهم مثلاً: البيهقي، وشمس الدين الشهروزري، وابن الخطيب. ولكن نجد فريقاً آخر من علماء المسلمين قد سموه «مسكويه»، ومنهم مثلاً: أبو حيان التوحيدي، والثعالبي، والقفطي.

ومهما يكن، فهذا الخلاف ليس بذي أهمية كبرى، إلا أننا نحب أن نشير إلى أن «ياقوت» صاحب =

الأخلاق في الكثير من كتاباته، وهو كمفكر اجتماعي نجده دائماً يقول: إن الإنسان لم يخلق ليعيش وحده كسائر الحيوانات والبهائم الأخرى، بل إنه في حاجة إلى التعليم والتعاون مع غيره في قضاء حوائجه.

وفي هذا البحث المتواضع سأحاول استخلاص آراء ابن مسكويه في الأخلاق والاجتماع والتربية، من خلال كتابه «تهذيب الأخلاق»، أو بتعبير آخر، سأحاول من خلال دراستنا وتحليلنا لأفكار ابن مسكويه أن أبيِّن ما هو مفهومه للأخلاق، وما هو مفهومه للاجتماع، وما هو مفهومه للتربية؟.

الأخلاق:

ابتدأ ابن مسكويه حديثه عن الأخلاق بمقدمة بيَّن فيها أن الأخلاق تعني الأفعال الإرادية للإنسان، وهي المقصودة عنده بالبحث والنظر بالذات، لأنها تميز الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى التي تعتبر أفعالها «لا إرادية»، حيث إنها تفتقد قوة الفكر والتمييز.

يقول ابن مسكويه: «ولما كان الإنسان من بين الموجودات كلها هو الذي يلتمس له الخلق المحمود، والأفعال المرضية، وجب أن لا ننظر... في قواه وملكاته وأفعاله التي يشارك بها سائر الموجودات»[2]. بل ننظر في أفعاله وقواه وملكاته التي تخصه كإنسان، والتي تتم بها إنسانيته وفضائله، وهي الأمور الإرادية «التي تتعلق بها قوة الفكر والتمييز»[3].

وبتعبير آخر، يقول ابن مسكويه: إن الإنسان من بين سائر الموجودات «له

= «معجم الأدباء»، قد قال: إن ابن مسكويه كان مجوسياً ثم أسلم. ولكن هذا الرأي ليس من السهل تصديقه، لأنه لن يكون بمقدور إنسان حديث العهد بالإسلام أن يكون في مستوى ابن مسكويه في فهمه للإسلام، وانتفاعه به انتفاعاً كبيراً في تأسيس نظريته الأخلاقية.
وعلى أية حال، إن ابن مسكويه لا يعيبه الإسلام بعد التمجس، إن لم يكن يشرفه، إذ اهتدى بعد ضلال، ونجا بنفسه من شرور الكفر والالحاد.

(2) ابن مسكويه، أحمد بن محمد. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. تحقيق: ابن الخطيب. الطبعة الأولى، القاهرة: المطبعة المصرية ومكتباتها، 1398، ص 19.

(3) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 19.

فعل خاص به، لا يشاركه فيه غيره، وهو ما صدر عن قوته المميزة... فكلما كان تمييزه أصح، ورويته أصدق، واختياره أفضل، كان أكمل في إنسانيته...»[4] وسعادته أيضاً مرتبطة بنوعية الأفعال الإنسانية التي تصدر عنه، بحسب التمييز والروية.

وقد قسم ابن مسكويه الأفعال الإنسانية الإرادية إلى قسمين هما:

1 ـ أفعال إرادية خيرة،

2 ـ وأفعال إرادية شريرة،

«وذلك أن الغرض المقصود من وجود الإنسان، إذا توجه الواحد منا إليه، حتى يحصل، هو الذي يجب أن يسمى به خيراً أو سعيداً.... فإذن، الخيرات هي الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها وجد الإنسان، ومن أجلها خلق. والشرور هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه، أو كسله وانصرافه»[5].

وقد قسم ابن مسكويه أيضاً الكمال الإنساني إلى قسمين، لأن الإنسان في نظره له قوتان: قوة عالمة، وقوة عاملة.

وهو، أي الإنسان، يشتاق بالقوة الأولى إلى العلوم والمعارف.

ويشتاق بالثانية إلى «نظم الأمور وترتيبها»[6].

1 ـ فكماله الأول بالقوة العالمة. التي يشتاق بها إلى العلوم، هو أن يصير الإنسان «في العلم بحيث يصدق نظره، وتصح بصيرته، وتستقيم رويته، فلا يغلط في اعتقاد، ولا يشك في حقيقة»[7].

2 ـ أما كماله الثاني بالقوة العاملة، فهو الكمال الخلقي للإنسان، ومبدؤه من

(4) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 20.
(5) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 19 - 20.
(6) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 49.
(7) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 50.

ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها، حتى لا تتغالب، وحتى تتسالم هذه القوى فيه، وتصدر أفعالها كلها بحسب قوته المميزة، منتظمة مرتبة كما ينبغي، وينتهي إلى التدبير المدني الذي يرتب الأفعال والقوى بين الناس، حتى تنتظم ذلك الانتظام، ويسعدوا سعادة مشتركة، كما كان ذلك في الشخص الواحد»[8].

فالكمالان، إذن، متممان لبعضهما بعضاً، أو هما بمنزلة الوجهين للعملة الواحدة، في نظر ابن مسكويه، فالكمال النظري بمنزلة الصورة، والكمال العملي في مرتبة المادة، «وليس يتم أحدهما إلا بالآخر، لأن العلم مبدأ، والعمل تمام، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً، والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً»[9].

ولكن كمال الإنسان ـ كما ينبهنا ابن مسكويه ـ لا يكون إلا في اللذات المعنوية، التي تغذي النفس بغذائها الملائم لها، وهو: العلم والمعرفة، والزيادة في المعقولات، وقبول الحق حيث كان، ومع من كان، والابتعاد عن الباطل والكذب كيف كان، ومع من جاء، والارتباط بالصدق دائماً. «فمن اتفق في الصبا أن يربى على أدب الشريعة، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعود، ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين، ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول، وصحة البرهان، فلا يسكن إلا إليها، ثم يتدرج في منازل العلوم حتى يبلغ إلى أقصى مرتبة الإنسان، فهو السعيد الكامل»[10].

إذن، إن الأخلاق، في نظر ابن مسكويه، هي عبارة عن خيرات وفضائل. وقد تقدم أن الخيرات هي الأشياء التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه، في الأمور التي خُلق الإنسانُ من أجلها أو وُجد.

وما دام الإنسان قد خُلق ليكون خيِّراً، فإنه يجب أن يجتهد في الوصول إلى الخيرات، ويحرص عليها، لأنها كماله، ويتجنب بالتالي الشرور التي تعوقه عنها،

---

(8) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 50.
(9) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 50.
(10) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 60.

وتنقص حظه منها.

أما الفضائل، فقد جعلها ابن مسكويه أربعة أجناس، وهي: ـ

1 ـ الحكمة: وقد وصفها بأنها «فضيلة النفس الناطقة المميزة» التي يجب أن تعلم «الأمور الإلهية، والأمور الإنسانية»، أو أن تعرف المعقولات، «أيها يجب أن يُفعل، وأيها يجب أن يُغفل»[11].

2 ـ الشجاعة: وهي «فضيلة النفس الغضبية، وتظهر في الإنسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة، واستعمال ما يوجبه الرأي في الأمور الهائلة»[12].

3 ـ العدالة: وهي «فضيلة للنفس» تحدث لها من اجتماع الفضائل الثلاث الأخرى. «ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبداً الانصاف من نفسه على نفسه أولاً، ثم الانصاف والانتصاف من غيره وله»[13].

4 ـ العفة: وهي «فضيلة الحس الشهواني». وتظهر هـذه الفضيلة في الإنسان عندما يكون قادراً على أن «يصرف شهواته بحسب الرأي»، بشرط أن يوافق التمييز الصحيح ـ كما يقول ابن مسكويه ـ حتى لا ينقاد الإنسان لشهواته. «ويصير بذلك حراً غير متعبد لشيء منها»[14].

إذن.. يكون الإنسان فاضلاً، خيراً، سعيداً، وحراً، إذا كانت أفعاله الإرادية توصف بقوة التمييز والروية والتفكير.

ولا شك أن الحالة النفسية للإنسان تؤثر تأثيراً بالغاً في تشكيل وإبراز سلوك وخلق هذا الإنسان، في اقترابه أو بعده من الفضائل والخيرات، خصوصاً إذا علمنا أن ابن مسكويه نفسه قد عرف الخلق بأنه «حال للنفس داعية لها إلى أفعالها»[15]. ثم جعل الحالة النفسية نوعين هما: ـ

---

(11) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 26.
(12) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 26.
(13) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 26 - 27.
(14) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 26.
(15) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 41.

1 ـ نوع طبيعي مزاجي، «كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب». أو «كالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه»[16].

2 ـ نوع مكتسب بالعادة والتدريب. «وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه، أولاً فأولاً، حتى يصير ملكة وخلقاً»[17].

إن السبب الذي جعل ابن مسكويه يقسم الحالة الخلقية للنفس إلى نوعين هو أن قدماء الحكماء والفلاسفة قد اختلفوا في الخلق. وقد أشار ابن مسكويه إلى هذا الاختلاف فقال: ـ

1 ـ إن بعض الحكماء قالوا: «من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه»[18].

2 ـ وقال البعض الآخر: «ليس شيء من الأخلاق طبيعياً للإنسان، ولا نقول إنه غير طبيعي. وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق، بل ننتقل بالتأديب والمواعظ، إما سريعاً أو بطيئاً»[19].

والظاهر أن ابن مسكويه قد أخذ بالرأي الثاني، لأن الرأي الأول في نظره «يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والتعقل، وإلى رفض السياسات كلها، وترك الناس همجاً مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جداً»[20].

وقد أشار ابن مسكويه إلى الفلسفة الرواقية التي كان لها رأي آخر في الخلق، وهو أن كل الناس «يخلقون أخياراً بالطبع، ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بمجالسة أهل الشر، والميل إلى الشهوات الرديئة التي لا تقمع بالتأديب»[21].

---

(16) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 41.
(17) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 41.
(18) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 41.
(19) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 41.
(20) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 41.
(21) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 42.

هذا هو رأي الرواقيين، وقد خالفهم فيه فلاسفة آخرون حيث ظنوا «أن الناس خلقوا من الطينة السفلى، وهي كدر العالم، فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع، وإنما يصيرون أخياراً بالتأديب والتعليم. إلا أن فيهم من هو في غاية الشر، لا يصلحه التأديب، وفيهم من ليس في غاية الشر، فيمكن أن ينتقل من الشر إلى الخير بالتأديب من الصبا، ثم بمجالسة الأخيار وأهل الفضل»[22].

وأما أرسطو فقد كان وسطاً بين الرأيين السابقين، حيث قال: ـ «إن الشرير قد ينتقل بالتأديب إلى الخير، ولكن ليس على الإطلاق»، لأنه بالتأديب وتكرير المواعظ، وأخذ الناس بالسياسات الجيدة، لا بد أن تؤثر «ضروب التأثير في ضروب الناس، فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء»[23].

والظاهر ـ كما ذكرنا أعلاه ـ أن ابن مسكويه قد أخذ برأي أرسطو في الأخلاق. وقد قسم الناس أخلاقياً إلى ثلاث فئات: ـ

1 ـ فئة خيّرة بفطرتها، ولكنها القلة.

2 ـ وفئة شريرة بطبيعتها، لا تصير إلى الخير أبداً، وهي الكثرة.

3 ـ وفئة تنتقل بين الخير والشر، وفقاً لأساليب التربية، ومخالطة الأشرار، أو مصاحبة أهل الخير[24].

الاجتماع:

ولما كانت الخيرات في الأفعال الإرادية هي «إما باختيار الأفضل والعمل به، وإما باختيار الأدون والميل إليه». وأيضاً، لما كانت الخيرات الإنسانية وملكاتها، التي في النفس كثيرة، «ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها، وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم»[25].

---

(22) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 42.
(23) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 43.
(24) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 43 -45.
(25) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 22.

يمكن أن نعتبر هذا الرأي هو بداية الحديث عن العلاقات الاجتماعية وأهميتها لبني البشر. لقد أسس ابن مسكويه هذه العلاقات على مبدأ العدل والمساواة والتكامل الاجتماعي، القائم على المحبة والألفة، الذي هو ضروري لاستمرار العمران البشري. إنه يقول: ـ

«إن الإنسان من بين جميع الحيوان لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته، ولا بد له من معاونة قوم كثيري العدد، حتى يتمم به حياة طيبة، ويجري أمره على السداد».

وهنا يستشهد ابن مسكويه برأي بعض الحكماء الذين يقولون بأن الإنسان مدني بالطبع. وهذا يعني احتياجه «إلى مدينة فيها خلق كثير، لتتم له السعادة الإنسانية»[26].

ولذلك وجب وجود جماعة كثيرة، مجتمعة في زمان واحد، من أجل تحصيل هذه السعادة المشتركة، وتكميل كل واحد منهم بمعاونة الآخرين له، «فتكون الخيرات مشتركة، والسعادة مفروضة بينهم، فيتوزعونها حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها، ويتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الأنس»[27].

وما دام الإنسان اجتماعياً بطبعه، فهو دائماً في حاجة لبني جنسه، في حاجة إلى معاونتهم لقضاء مصالحه وتحقيق سعادته. إن الإنسان محتاج إلى غيره، ومضطر «إلى مصافاة الناس، ومعاشرتهم العشرة الجميلة، ومحبتهم المحبة الصادقة، لأنهم يكملون ذاته، ويتممون إنسانيته، وهو أيضاً يفعل بهم مثل ذلك»[28].

أو بتعبير آخر، إن الناس يجب أن يحب بعضهم بعضاً، «لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته. فيكون إذن كل واحد

---

(26) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 37 -38.
(27) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 22 -23.
(28) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 38.

بمنزلة عضو من أعضاء البدن، وقوام الإنسان بتمام أعضاء بدنه»[29].

وبما أن الإنسان «أنس بالطبع، وليس بوحش ولا نفور» فإنه يجب أن لا ننسى «أن هذا الأُنْسَ الطبيعي في الإنسان هو الذي ينبغي أن نحرص عليه، ونكتسبه مع أبناء جنسنا، حتى لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا، فإنه مبدأ المحبات كلها»[30].

ولكن، كيف نكتسب أو يحدث الأنس؟.

يقول ابن مسكويه مجيباً على هذا السؤال: ـ إنها الشريعة والعادات الحسنة التي تدعو إلى اللقاءات والاجتماعات في المناسبات الدينية والاجتماعية فيحصل من خلالها الأنس. فالشريعة إنما أوجبت على الناس: ـ

أولاً: ـ أن يجتمعوا كل يوم خمس مرات في مساجدهم، «وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد، ليحصل لهم هذا الأنس الطبيعي الذي هو فيهم بالقوة، حتى يخرج إلى الفعل، ثم يتأكد بالاعتقادات الصحيحة التي تجمعهم...، والدليل على أن غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه، أنه أوجب على أهل المدينة بأسرهم أن يجتمعوا كل أسبوع يوماً بعينه، في مسجد يسعهم، ليجتمع أيضاً شمل أهل المحال والسِّكك في كل أسبوع، كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل في كل يوم»[31].

ثانياً: ـ إن الشريعة أوجبت أيضاً أن يجتمع «أهل المدينة مع أهل القرى... المتقاربين، في كل سنة مرتين في مصلى، بارزين مصحرين [صلاة العيدين]، ليسعهم المكان، ويتجدد الأنس بين كافتهم، وتشملهم المحبة الناظمة لهم»[32].

ثالثاً ـ ثم أوجبت الشريعة أن يجتمع الناس في العمر كله مرة واحدة،

---

(29) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 23.
(30) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 153.
(31) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 153.
(32) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 154.

وذلك أثناء تأدية فريضة الحج. ولم يخصص من العمر وقت محدد، ليتسع لهم الزمان، «وليجتمع أهل المدن المتباعدة، كما اجتمع أهل المدينة الواحدة، ويصير حالهم في الأنس والمحبة، وشمول الخير والسعادة، كحال المجتمعين في كل سنة، وفي كل أسبوع، وفي كل يوم، فيجتمعوا بذلك إلى الأنس الطبيعي، وإلى الخيرات المشتركة»[33].

هذا هو مفهوم الأُنْس عند ابن مسكويه، أما مفهوما العدل والتكافل الاجتماعي فقد حددهما في إطار الألفة والتعاون الاجتماعي والاقتصادي، وفقاً لضرورة الحاجة التي تفرض وجودها في المجتمع الإنساني. حيث إن الناس هم ـ كما أشرنا ـ مدنيون بالطبع، ولا يتم لهم عيش إلا بالتعاون، ولذلك ـ يقول ابن مسكويه ـ يجب «أن يخدم بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم من بعض، ويعطي بعضهم بعضاً»[34]، لأن «الحاجة صادقة، والضرورة داعية إلى حال تجمع وتآلف بين أشتات الأشخاص، ليصيروا بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد، الذي تجمع أعضاؤه كلها على العقل الواحد النافع له»[35].

فالرجل وزوجته، مثلاً، أو الزوجان بينهما «خيرات مشتركة، ومنافع مختلفة، وهما يتعاونان عليها، أعني الخيرات الخارجة عنها، وهي الأسباب التي تعمر بها المنازل، فالمرأة تنتظر من زوجها تلك الخيرات، لأنه هو الذي يكتسبها ويحضرها، وأما الرجل فإنه ينتظر من زوجته ضبط تلك الخيرات، لأنها هي التي تحفظها وتديرها، لتثمر ولا تضيع، فمتى قصر أحدهما اختلفت المحبة وحدثت الشكايات. . .»[36].

وهذا يعني أن التناسب في العلاقات بين الزوجين قد اختل، وعلى العدالة أن تعيد هذا التناسب إلى ما كان عليه، فالعادل، إذن، «من شأنه أن يساوي بين الأشياء غير المتساوية». ولكن هذا العادل يجب أن يكون «عالماً بطبيعة الوسط

(33) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 154.
(34) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 126.
(35) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 149.
(36) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 156.

حتى يمكنه أن يرد الطرفين إليه»[37].

وقد ضرب ابن مسكويه مثالاً آخر لذلك، وهو ما أسماه بمثال «الربح والخسران»، في باب المعاملات، فقال: ـ

إن الربح والخسران في المعاملات هما «طرفان، أحدهما زيادة، والآخر نقصان، فإذا أخذ أقل مما يجب، صار إلى جانب النقصان، وإن أخذ أكثر مما يجب، كان خارجاً إلى جانب الزيادة»[38]. ولكن الشريعة «هي التي ترسم في كل هذه الأشياء التوسط والاعتدال»[39].

والدينار ـ في نظر ابن مسكويه ـ هو المقوم للأشياء المختلفة، ويسوي بينها، «ويزيد في شيء، وينقص في آخر»، حتى تصح المشاركات والمعاملات بين الناس، «ويتبين وجه الأخذ والاعطاء»، فيحصل بذلك الاعتدال وتستوي المعاملة، وهذا هو العدل المدني الذي تعمر به المدن[40].

وقد سبق القول أن الناس في حاجة إلى بعضهم بعضاً. وتبيَّن أن كل إنسان قد يجد تمامه عند صاحبه، وأن الضرورة تستدعي أن يستعين الناس ببعضهم بعضاً، خصوصاً وأن الناس «مطبوعون على النقصان، ومضطرون إلى تماماتها».

والمثال الذي يضربه ابن مسكويه في هذا المقام هو: إذا «أخذ الاسكاف من النجار عمله، وأعطاه عمله، فهي المعاوضة، إذا كان العملان متساويين، ولكن ليس يمنع مانع أن يكون عمل الواحد خيراً من عمل الآخر، فيكون الدينار هو المقوِّم والمسوّي بينهما»[41].

ولكن، كما ينبهنا ابن مسكويه، ليس الدينار هو كل شيء. ومن أحبَّ

---

(37) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 126.
(38) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 126.
(39) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 126.
(40) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 127.
(41) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 127.

الدينار حباً مفرطاً لم يؤهل لأن يكون خيّراً وعادلاً، لأن حرص الإنسان «على جمع المال يصده عن استعمال الرأفة، وامتطاء الحق، وبذل ما يجب، ويضطره إلى الخيانة والكذب، والاختلاق، والزور، ومنع الواجب»[42].

فالواجب على الإنسان، إذن، أن يكون خيّراً. «وخير الناس خيرهم لأهله وعشيرته والمتصلين به...»[43].

التربية:

ولكن الخير المطلق، الذي يتشوق إليه الإنسان دائماً، لا يتم تحقيقه إلا إذا استطعنا أن نغرس في هذا الإنسان، منذ صغره، فضيلة «الحياء» أو «الخوف من ظهور شيء قبيح منه».

يقول ابن مسكويه: «فإذا نظرت إلى الصبي، فوجدته مستحيياً، مطرقاً بطرفه إلى الأرض، غير وقاح الوجه، ولا محدقاً إليك، فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه، وهذا ليس بشيء أكثر من إيثار الجميل، والهرب من القبيح، بالتمييز والعقل، وهذه النفس مستعدة للتأديب، صالحة للعناية، لا يجب أن تهمل، ولا تترك»[44].

ومعنى هذا أن وقت تربية الطفل قد حان، عندما نلاحظ ظهور فضيلة الحياء عليه، لأنها دليل نجابته وتعقله، وتمييزه بين الحسن والقبيح، ولهذا، يجب أن لا يسمح لهذا الطفل بمخالفة الأطفال الآخرين الذين تنعدم فيهم هذه الفضيلة، أو لهم عادات سيئة، خوفاً من تأثره بهم، لأن نفس الصبي ساذجة، «لم تنتعش بعد بصورة، وليس لها رأي، ولا عزيمة، تميلها من شيء إلى شيء. فإذا انتعشت بصورة وقبلتها، نشأ عليها واعتادها»[45].

---

(42) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 32 -33.
(43) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 32.
(44) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 67.
(45) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 67.

وما دام الطفل قد بدأت تظهر عليه فضيلة الحياء، فإن أول شيء ينبغي أن نعلّمه له هو «حب الكرامة»، عن طريق التقيد والالتزام بالمبادىء والأمور الدينية، لا الدنيوية. فيجب: ـ

أولاً: ـ أن «يمدح الاخيار عنده، ويمدح هو في نفسه إذا ظهر شيء جميل منه، ويخوف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه».

ثانياً ـ أن «يزيد عنده خلق النفس، والترفع عن السَّرَف في المآكل خاصة، وفي اللذات عامة. ويُحَبَّب إليه إيثار غيره على نفسه بالغذاء، والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد في التماسه».

ثالثاً: ـ أن يُطالب الطفلُ «بحفظ محاسن الأخبار، والأشعار، التي تجري مجرى ما تعوده بالأدب، حتى يتأكد عنده، بروايتها وحفظها، والمذاكرة بها، جميع ما قدمنا»، وهو الحياء والأدب. فيُمدح الطفلُ «بكل ما يظهر منه من خلق جميل، وفعل حسن، ويكرم عليه»[46].

ولكن إن خالف الطفل ذلك، بأن بدر منه ما يسيء، لأول مرة، فإن ابن مسكويه يرى أننا يجب أن لا نلتفت إلى هذا السلوك، ولا نوبِّخ الطفل عليه، خصوصاً إذا حاول الطفل نفسه إخفاء فعلته. فإن عاد إلى مثل هذا السلوك مرة ثانية، وبخناه عليه سراً، وحذرناه من معاودته.

ولكن يجب أن لا نكرر توبيخنا للطفل على أفعاله السيئة، لأننا بهذا السلوك سنجعل الطفل يتعود على التوبيخ، ولن يكون له ذلك كالرادع يمنعه من معاودة ما استقبحناه منه.

يقول ابن مسكويه: فإن ارتكب الطفل في بعض الأوقات أي سلوك سيء، «فالأولى أن لا يُوَبَّخ عليه، ولا يكاشف بأنه أقدم عليه، بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله، ولا هَمَّ به، لا سيما إن ستره الصبي، واجتهد في أن يخفي ما فعله عن الناس، فإن عاد فليوبخ سراً، وليعظم

---

(46) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 67 -69.

عنده ما أتاه، ويحذر من معاودته. فإنك إن عودته التوبيخ، والمكاشفة، حملته على الوقاحة، وحرضته على معاودة ما كان استقبحه، وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات التي تدعو إليها نفسه...»[47].

ومن بين قبائح اللذات التي ينبغي تقويمها أولاً «طريقة الأكل». فيجب أن نعلِّم الطفل آداب الطعام، فنفهمه أولاً أن الأكل إنما يراد للصحة، «لا للذة، وأن الأغذية كلها إنما خلقت... لتصح بها أبداننا... فهي تجري مجرى الأدوية، ليتداوى بها الجوع، والألم الحادث منه»[48].

ولهذا، إذا جلس الطفل مع غيره على مائدة الطعام، يجب أن لا يكون هو المبادر بالأكل، «ولا يديم النظر إلى ألوانه... ويقتصر على ما يليه، ولا يسرع في الأكل... ولا يلطخ يده، ولا ثوبه، ولا يلحظ من يواكله،... ويعود أن يؤثر غيره بما يليه...»[49].

ولكن ـ كما يشير ابن مسكويه ـ يجب أن لا يأكل الطفل حتى ينهي أولاً جميع واجبات ووظائف الأدب والدروس التي يتعلمها، وأن يتعب تعباً كافياً في ذلك.

وما دام الحياء والسلوك الحسن هما المحوران اللذان تدور حولهما نصائح وإرشادات ابن مسكويه الأخلاقية للطفل، فإننا نجده يقوِّم كثيراً من العادات، سواء منها ما يتعلق بالأكل، كما أشرنا أعلاه، أو ما يتعلق بعادة النوم، فإن ابن مسكويه ينتقد النوم الكثير للطفل، لأنه في نظره يميت قلب الطفل وذهنه. إن ابن مسكويه يمنع على الطفل أيضاً أن لا يبصق أمام الآخرين في فصول الدراسة، أو في المجالس العامة، أو غيرها، «ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضرب رجلاً على رجل، ولا يضرب تحت ذقنه بساعده، ولا يعمد رأسه بيديه، فإن هذا دليل الكسل»[50].

(47) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 69.
(48) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 69.
(49) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 70.
(50) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص ص 71 -72.

ومن باب الأدب والاحترام أيضاً، يجب أن يتعلم الطفل قلة الكلام، «فلا يتكلم إلا جواباً، وإذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه، والصمت له»[51].

وهكذا يتعلم الطفل أن يكون مطيعاً لوالديه ومعلميه ومؤدبيه، وينظر إليهم بعين التقدير والاحترام، ويهابهم. وإذا ضربه المعلم، مثلاً، يجب «أن لا يصرخ، ولا يستشفع بأحد، فإن هذا من فعل المماليك، ومن هو خوار ضعيف»[52].

وإذا فرغ الطفل من تعليمه، ينبغي أن يسمح له باللعب، بشرط أن يكون لعباً جميلاً، لا تعب ولا ألم فيه، ليستريح من عناء التعليم والتأديب.

وفي الختام، إن ابن مسكويه يرى أن هذه القواعد الأخلاقية ليست نافعة للأطفال وحدهم فقط، بل هي أيضاً في غاية الأهمية والنفع للكبار، لأنها تعود الجميع محبة الفضائل، وتجنب الرذائل، فيعتادون ضبط النفس «عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك في شيء منها، والفكر فيها، وتسوقهم إلى... التقرب إلى الله عز وجل»[53].

وإذا أردنا أن نعقب على آراء ابن مسكويه التربوية، كخاتمة لهذا البحث المتواضع، فإننا نستطيع أن نقول إن ابن مسكويه قد فرق بوضوح بين التربية والتعليم.

فالتربية، في نظره، تعني النمو المتكامل لكل جوانب الشخصية، بينما التعليم يعني تدريب الفرد أو الجماعة على أداء بعض الواجبات بصورة كاملة وفعالة. فالإنسان، مثلاً، قد يُعَلم ليصبح محامياً ناجحاً، أو ضابطاً أو طبيباً ماهراً، ولكن تربيته قد تكون ناقصة أو ضعيفة، فيكون هذا الإنسان صاحب أخلاق رديئة أو سلوك سيء.

---

(51) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 72.
(52) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 73.
(53) ابن مسكويه، نفس المصدر، ص 73.

إذن ـ كما نلاحظ ـ أن عامل الدين قد أخذ مكاناً هاماً وكبيراً في تفكير ابن مسكويه التربوي، وقد استمد من الدين الإسلامي كل الغايات والأهداف ذات المعنى والمضمون للتربية والتعليم.

وغرض التربية الأسمى عند ابن مسكويه، في هذا المضمار، هو تكوين الشخصية عند الطفل.

ويعني بتكوين الشخصية هو خلق وتطوير تلك الصفات والمزايا الخلقية الرفيعة في الطفل، مثل الحق، والفضيلة، والعدل.

وأحب أن ألاحظ هنا أن أغلب فلاسفة التربية المحدثين يرون أن الغاية القصوى التي يجب أن يسعى إلى تحقيقها المربون في هذا العصر هو تغذية الإنسان بالاستقامة، ونقاء الشخصية وطهرها.